التاريخ فى سير أبطاله

أحمـــد عرابى

للأستاذ محمود الخفيف

أما آن للتاريخ أن ينصف هذا المصرى الفلاح ،
وأن يحدد له مكانه بين قواد حركتنا القومية ؟

يذكر المصريون اسم عرابى فلا يبتعث هذا الاسم وا أسفاه فى أذهانهم إلا صور العنف والزق والحق ، وتراهم — وإن لم يقصدوا — يقرنون اسم عرابى بمعانى الهزيمة والاحتلال والمذلة كأن هذه المعانى من مرادفاته

وما أذكر مجلساً تطرق الحديث فيه إلى عرابى إلا وسرت فى الوجوه كآبة ، وتسابقت الألسن للمزء به وتعديد مساوئه وإبراز مثالبه ...

والحق أنه قل أن نجد فى رجالنا رجلاً ضاعت حسناته فى سيئاته كما ضاعت حسنات عرابى المسكين فيما ارتكب وفيما افترى عليه من سيئات ؛ وكذلك قل أن نجد فى رجالنا رجلاً كرهه بنو قومه واستنكروا أعماله بقدر ما كره هؤلاء عرابيًّا واستنكروا ما فعل وما أسند إليه من الأعمال زوراً وإفكاً . وفى ذلك دليل قوى على أن التاريخ قد يظلم عامداً كما قد يخطئ غير عامد ؛ وفيه كذلك دليل على أن الأمور كثيراً ما تجرى فيه كما يرسم الحظ لا كما يضع العدل من قسطاس ؛ فيكون نصيب بعض الرجال من التعظيم بقدر ما يتوافى لهم من حظ لا ندرى كيف اتفق لهم دون غيرهم ، بينما يجنى على كثير من ذوى النفوس الصحيحة والعظمة الصادقة ما يلحق بهم من سوء الطالع وما يحيط بهم من نحس الأيام

وما كان عرابى فيما أعتقد أثقل الرجال وزراً وإن لم يكن أقلهم أخطاء . ولعلى أستطيع أن أجلو ذلك فى سيرته بقدر ما أصل إليه من وجوه الصواب فى تلك السيرة التى بالغ كثير من ذوى الأغراض فى تشويهها والحط من قدر صاحبها

ومهما يكن من الأمر فما أحسب من الناقمين على عرابى من يستطيع أن يمارى فى أنه كان زعيم حركة وداعية فكرة ، وأنه — أخطأ أو أصاب — كان مخلصاً فيما يفعل وفيما يقول ، وأنه قبل ذلك كله وفوق ذلك كله كان أول مصرى فلاح فى مصر الحديثة خرج من بين عامة الفلاحين فى قرية من قرى مصر فاضطلع بقضية ، ونادى على رأس المنادين بمطالب مصر ، وصار اسمه فى موقف هام من مواقف نهوضها علما على الجهاد ورمزاً للمقاومة حتى شاءت الظروف فامتشق الحسام وسار على رأس جيش من بنيها يذود عن أراضيها ويقف غير هازل ولا طامع فى وجه الغادرين الباطشين من أعدائها ...

بهذه الروح أكتب عن عرابى ، وعلى هذا الأساس أبين سيرته ، فالإخلاص فى الرجال هو عندى مقياس بطولتهم الأول ، بل هو فيما أرى أصح المقاييس وأهمها ؛ أما الصواب والخطأ وما إليهما ، فأمور توجد فى الأبطال وغير الأبطال ، ولا فرق فيها فى كثير ولا قليل بين هؤلاء وهؤلاء !

ولد أحمد عرابى فى عام ١٨٤٠ م فى قرية تدعى هرية رزنة بمديرية الشرقية ، ونشأ الصبى القروى كما ينشأ الآلاف مثله فى قرى مصر على نمط من العيش لا نحسبه يختلف كثيراً باختلاف العصور فى هذه القرى التى نبتت على ماء النيل منذ الأزل ...

نشأ فى هذه القرية الصغيرة ذلك الصبى الذى قدر له أن يجرى اسمه يوماً ما على كل لسان فى مصر ودرج بين لداته عرضة

للأمراض المختلفة ، يحيط به فى قريته الجهل والفقر أينما اتجه ، ولا يجد حوله من مظاهر الحياة والعمران مثل ما يجده صبى مثله ينشأ فى مدينة كبيرة أو يتلقى العلم المنظم فى مدرسة منظمة

على أنه يذكر عن أبيه فى مذكراته[1] أنه كان « شيخاً جليلاً رئيساً على عشيرته عالماً ورعاً تقياً موصوفاً بالعفة والأمانة » ؛ ومهما يكن من أمر أبيه فليس يعنينا فى هذا المقام سوى أنه أرسل ابنه إلى مكتب القرية وهو كما يقول ابنه من منشآته فيها ، وفى هذا المكتب فتحت عينا الصبى على نور العلم فحفظ شيئاً من القرآن وتعلم القراءة والكتابة ؛ وتعهده صراف القرية زمناً فعلمه مبادئ الحساب

ومات أبوه وهو فى الثامنة من عمره ، ولكن بينه لم يحل بينه وبين أن ينال قسطاً من العلم فى الأزهر فلقد أرسله أخوه الأكبر إلى هناك عسى أن يكون عالماً من علمائه ، ولكن الصبى لم يلبث بالأزهر كثيراً فعاد إلى قريته ، وكان من الممكن أن يعيش فى تلك القرية ثم يموت فيها كما يعيش ويموت سواه من الفلاحين من أهلها . . .

ولكن الأقدار تخرجه من هذه القرية ليغدو فيما بعد رجلاً من رجال مصر ، وليثبته التاريخ فى سجله ، بعد أن يصل اسمه إلى مسامع جميع الساسة فى ذلك العصر ؛ وتنطوى السنون وتبقى ثورته صفحة من أهم الصفحات فى تاريخ هذا البلد

أراد سعيد أن ينهض بالجيش ، لا لأنه كان رجل حرب وأطماع ، ولكن لأن الجيش كان ملهاته ، فأمر بتجنيد أبناء المشايخ والأعيان ، وكان من بين من جندوا ذلك الفتى الأزهرى القروى الذى لم يكن له من عمل فى قريته ، وكان يومئذ فى الرابعة عشرة

وبالتحاق عرابى بالجيش تبدأ مرحلة جديدة فى حياته ، ثم تنتهى من ناحية أخرى مرحلة تعليمه . ومن ذلك نرى أن كل ما ناله عرابى من المعرفة لم يعد ما تلقاه فى المكتب ثم فى الأزهر قبل سن اليفاعة ، اللهم إلا ما كان من مطالعاته الخاصة فيما بعد وهى أمر لا يمكن تحديده ...

ولطالما رمى عرابى بالجهل ثم عد هذا الجهل من أهم نواحى ضعفه ، بل لقد كانت تلك الناحية فى مقدمة ما يهزأ به منه خصومه ، وبخاصة أولئك المؤرخون الأجانب الذين ينتابهم أبداً لذكر عرابى ما يشبه الحمى فيطلقون ألسنتهم فيه بلا حساب

(١) كشف الستار عن سر الأسرار فى النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية

ولست أحاول هنا أن أنسب العلم إلى عرابى فما أبعده عن أن يوصف بالعلم ، ولو كما كان يفهم أهل عصره من مدلوله ؛ ولكنى من ناحية أخرى لا أراه من الجهل كما يصفون أو كما يسخرون ، ذلك أنى أقيسه إلى جمهرة المتعلمين فى عصره من أهل مصر ، وما كان لى أن أعدو ذلك فأقيسه إلى رجال جيله فى أوربا إلا أن أعتبر مصر يومئذ فى مصاف تلك الدول علماً وثقافة وحضارة . ولن توصف الشمعة لعمرى مهما كانت ضئيلة النور بأنها مظلمة ، ولا سيما إذا قيست إلى غيرها من الشموع وما على شاكلتها من المصابيح ؛ أما أن تقاس إلى المشاعل القوية أو أن تنقل من ظلمة الليل إلى وضح النهار ثم يتحدث بعد ذلك عن مقدار نورها ، فهذا ما لا يجوز إلا فى حساب المغرضين والمبطلين

ومتى كان العلم الغزير من مستلزمات البطولة ؟ ألا كم شهد التاريخ من أناس لم يكن لهم من العلم إلا مثل حظ الرجل العادى منه بحيث لو أنهم قيسوا من هذه الناحية إلى معاصريهم من العلماء والفلاسفة لكانوا فى حكم العدم ، ومع ذلك فلم ينل نقصهم هذا من بطولتهم أو يقعد بهم عن مواصلة السير إلى مثلهم التى رسموها ؛ وذلك أن قلوبهم كانت عامرة بما هو أغلى وأعظم من نظريات العلماء وأحلام الفلاسفة ... كانت قلوبهم عامرة بالإخلاص والحماسة والعزم وهى خلال لن تقوم عظمة حقيقية بدونها ولن تغنى عنها سواها من الخلال مهما كان من قيمتها فى مجال آخر ؛ ورجل واحد وثيق العزيمة صادق الإخلاص متوقد الحماسة خير فى قيادة الناس وتحريرهم من عشرات الفلاسفة النارقين فى أوراقهم وكتبهم

وما كان عرابى فيما استخلص من سيرته خلواً من هذه الخلال ، بل لقد كان ما توافى له منها لا ينزل به فى البطولة عن مرتبة شريف والمويلحى واللقانى ومحمد عبده وجمال الدين والبارودى وغيرهم من مثقفى عصره ، إن لم يكن يرتفع به عليهم على ضآلة علمه بالنسبة إليهم . ولست أغلو فى ذلك أو أتحيز ، وإلا فكيف انتهت إليه فى وقت ما زعامة الحركتين الوطنية والعسكرية معاً ؟ ولقد كان فى الأولى كما ذكرت من الرجال من هم أعلى كعباً منه فى المعرفة ، وفى الثانية من هم أرسخ قدماً فى الجندية ؟ وهل يعزى ذلك إلى الحظ وقد كان عرابى من أكثر الناس شغباً على رؤسائه فى الجيش ، أم يعزى إلى الجاه والثروة وقد كان فلاحاً ابن فلاح من بيت عادى لا ثروة له ولا جاه ؟

ألا إنه لا مناص لنا إذا أردنا الإنصاف من أن نعزو ذلك

إلى أنه كان أكثر ممن حوله إيماناً وأقوى منهم جناناً وأشد منهم توثباً وتطلعاً ، وإن كان من أقلهم معرفة واطلاعاً ؟ وهنا لا أتردد أن أثبت رأياً آخر وهو أنه لا يجوز عندى أن يُعدّ عليه ما يعزى إليه من جهل أو أن يؤخذ به ، وإنما ينبغى أن يعد له وأن يعتبر داعياً من دواعى فخره !

انتظم عرابى فى سلك الجندية (نفراً) عادياً فما لبث أن ترقى بعد سنتين إلى رتبة (ملازم ثان) وكان ذلك حوالى عام ١٨٦٠ ثم إلى رتبة ملازم أول فيوزباشى فى نفس العام ، ولم يمر عامان بعد ذلك حتى وصل إلى رتبة قائمقام (بك) وكان عرابى أول مصرى وصل إلى هذه الرتبة كما يقول فى مذكراته

وصل هذا الجندى من رتبة الجاويش إلى رتبة قائمقام فى نحو أربع سنوات وما كان ذلك عن حظوة له عند أحد ، وإنما كان سلاحه ذلك القدر من العلم الذى أشرنا إليه، فبه تمكن عرابى أن يدرس القوانين العسكرية ويجتاز الامتحانات متفوقاً ، ويدلنا ذلك على ندرة المتعلمين فى ذلك الجيش ، ولا شك أن هذا الترقى السريع قد بث فى نفس الفتى القروى كثيراً من الطموح والإقدام ...

على أنه كان شجاعاً بطبعه فى عصر كثيراً ما كانت تعد الشجاعة فيه ضرباً من العصيان والتمرد كما سيأتى بيانه ؛ ولسوف نرى من مواقفه فى هذا العصر ما يزيد معنى بسالته ويظهرها مضاعفة ...

وأول ما عرف عنه فى الجندية كراهته للعنصر الجركسى ، فكان لا يفتأ يقارن بين نصيب هذا العنصر ونصيب المصريين من المناصب ، فلا تزيده المقارنة إلا غضباً وكراهية لهؤلاء الأجانب . أليست هذه النزعة من جانبه هى نزعة الوطنيين فى الجيش حينما تبدأ الحركة العسكرية ؟ ثم ألسنا نجد فيها جانباً من الوطنية ومعنى من معانيها ؟

ولكن بعض المؤرخين لا يفهم هذا من جانب عرابى إلا على أنه ضرب من الأنانية والجشع ، بل ليسرف بعضهم فيرميه بالتبجح قائلين: ما لهذا الفلاح وعليا المراتب فى غير جدارة؟ وإنهم فى ذلك ليمتدحونه من حيث لا يشعرون ! ولئن كان الطموح بالنفس والشعور بالقومية تبجحاً ، فماذا نسمى القاعد والتخاذل والاستخذاء أمام الأجنبى ؟ ألا ليت كل تبجح يكون كتبجح عرابى هذا فما أعظمه وما أجله ، وما أجدره بالتقدير والإعجاب ! وليت شعرى كيف يستطيع رجل فى مثل موقفه أن يقنع الكارهين أن نزعته كانت قومية يقصد بها بنى قومه جميعاً ؟ وأى عيب فى أن يبدأ بنفسه فيرقى بها ؟ أليس مصرياً ؟ وهل كان يعتز بغير مصريته إذا اعتز بنفسه ؟ على أنه لو أراد بالرقى نفسه فحسب دون أى اعتبار قومى ، فما وجه العيب فى ذلك ؟ أيكون من العيب أن يتطلع الرجل إلى العالى ، ولا يكون من العيب أن يرضى بتقدم غيره عليه حتى ولو كان ذلك الغير أجنبياً ؟

إن الرجل المخلص لا يقف ليقول للناس إنه مخلص وفى ذلك شك منه فى نفسه ، ولا يكون هناك دليل على إخلاصه إلا ما يعمل فى سبيل تحقيق مبدئه، أما الكلام فسبيله ميسور ؛ وفى استطاعة كل مبطل أن يملأ أسماع الناس بدعوى إخلاصه فى غير مشقة .

« يتبع »

الخفيف

الغدد والهرمونات

إن من الواجب المقدس على الرجل بعد الثلاثين أن يهتم بغدده وأن يحافظ عليها لكى تقوم بوظيفتها . ووظيفة الغدد هى إفراز هرمونات فى الجسم تملأه قوة وحيوية ونشاطاً . فإذا كانت غددنا لا تفرز الهرمونات بانتظام فعلينا أن نعالجها بمقويات طبية مضمونة لتعود إلى نشاطها وعملها فنشعر حالاً بفرق هائل فى قوانا الجنسية والحيوية

لقد توصلت معامل إلن وهنبريس الشهيرة فى لندن إلى تحضير أقراص ثيدا ـ جلاند التى تعيد إلى الغدد قوتها ونشاطها ونظام عملها . وهى ضامن أكيد لإنعاش الغدد لتفرز الهرمونات وتعيد إلى الجسم قواه الجسدية والتناسلية والحيوية

لا تترك غددك ضعيفة جائعة ناشفة . أعطها مقويا يعيد لها الحياة والقوة . خذ أقراص ثيدا ـ جلاند . هى خلاصة غدد طازه ومفعولها مضمون